سندبادُ كتبٍ ضلَّ طريقَه

عبد الحكيم حيدر

كان للكاتب خورخي لويس بورخيس بَلْطَته القاطعة وهو يناطح الإسبانية القديمة والمعاصرة، واللاتينية القديمة، بعدما تجاسرت وتبعثرت في جغرافيا أوروبا ومذابحها الإنكليزية، وغيرها، حتى وصلت مراكبها إلى الأرجنتين. أحبّ بورخيس حتى الرقصات الشعبية وإيقاعاتها، وبخاصة الفلامنكو، وأنا فقيرٌ ولا أمتلك نصاعة الإنصات والزحف كالثعبان البورخيسي في حوليّاتِ اللغةِ ومنابعها، ومذابحِها، ومتناقضاتِها ومتشابهاتِها، وما صار مركوناً ومنسيّاً في جيوب القواميس ودهاليزها المرهقة. فكيف جاب هذا الأرجنتيني كل هذه الطرقات؟

أنا سندباد فقيرٌ بلا بَلْطَةٍ ولا عُدَّةٍ ولا منشار. وحتى مكتبتي فقيرة فقر وظيفتي المكتبية التي مارستها زَهْقَاً وضيقاً ستة وثلاثين عاماً دون أن أصل لأي صفاء. فقط، أجلس كنحلةٍ فوق زهرات الكتب، وسريعاً ما أطير مندهشاً وحيران إلى جهاتٍ أخرى معاكسةٍ تماماً للأولى التي أخذتني، وقد أنسى خطواتي التي بَدَأْتُها، وأتأمّل بعد سنوات دماء أحباري التي ما زالت تنزف رغم نسياني لها فوق أوراقي القديمة.

أجري كي أجالس بعض المدرّسين الشاردين من حصصهم، والمهزوزين أيضاً، هم صيدي وأعرفهم، وعلّني أنا صيدُهم دون أن أدري لُؤْمَهُم. شَرَدوا من حِصَصِهِم بحثاً عن رزق آخر في الدروس الخصوصيّة والمجموعات. ويأتيني مُدرّس لغة إنكليزية، في يوم تراه متديناً جداً، واعتبر نفسه في بداياته من دراويش مصطفى محمود، وألّف كتّاباً عن الدخان والسجائر رأى فيه، بكلّ يقين، أنّ شجرة الزَّقُّومِ، الوارد ذكرها في القرآن، هي «الشجرة التي منها يكون التّبْغ في أيامنا المعاصرة». بعد أن يترك المدرسة بسبب ضربه تلميذاً، يفتح صالون حلاقة.

ترى في الحياة أحياناً أشخاصاً يقولون لك صباح الخير، هم أكثر غرابة من بعض شخصيات «ألف ليلة وليلة»، كيف أفلتنا بالكتابة وحدها من جبال الكآبة تلك؟

أتعجّب من بورخيس الذي يُنْصِتُ للأشخاصِ بعمق، وكأنّه يتنفّسهم ويتلمّس خطاياهم بعقله بسخرية هادئة جداً، ويستطيع بعد ذلك أن يمشي كنمرٍ مع لُؤْمِ الكتب، بصرف النظر عن محبّته للنمور، وللسكاكين حين كانت تتلاعب في أيدي المتصارعين والفتوات في الأرجنتين، فكيف انتقل بورخيس من لؤم الكتب إلى عنف الفتّوات بسكاكينهم إلى الشعر، إلى رقصة الفلامنكو حتى تعدى الثمانين، وأنا هنا أخاف من لُؤْمِ الكتب، فأطير سريعاً كالعصافير إلى أشياء أخرى. واضح أنّ المعرفة قويّة جداً، وأنا أضعف مما كنت أتصور بكثير. هل الناس هي تلك الكتب المغلقة؟ ولو كان بورخيس أعطى لنفسه فرصة لصاحبِ الناسَ بدلاً من الكتب. أم أنّ الكتب آمنة جداً وطيّبة، بخاصة لرجل حسّاس صار فيما بعد كفيفاً؟

وأنا أمشي وراء خُطَى بورخيس في الكتب خطفني بول باولز إلى طنجة، ذلك النمر الهادئ أيضاً، الذي تخاطفته الموسيقى والسرد، وكان ينصت للحكّائين وعينه تتنقل من البحر إلى الصحراء. كان يمتلك شغفاً هادئاً، وكانت مكتبته أقل زحاماً بكثير من مكتبة بورخيس العامرة بالقواميس، كانت الجغرافيا مع الموسيقى تناديه وهو في غفوة السرد أو الكيف، فيغادر طنجة إلى الصحراء، كما غادر أميركا إلى طنجة. كانت جغرافيا بورخيس في الكتب، وكانت كتب باولز في تجواله الدائم بحثاً هناك عن موسيقى غامضة وبآلات بسيطة. عن ماذا يبحث الحيران عموماً، وبخاصة إذا كان معنياً بترك ذلك الأثر كقيمةٍ رمزيّةٍ ما، خلف ظهره في ذلك الكون؟

كان باولز يَمْقِتُ فكرة الأثر ويتكّلم عنها بتَهكّم هادئ. وفجأة، هَرَبْتُ من بول بولز إلى كلّ من أحمد اليعقوبي ومحمد المرابط، وعند المرابط وقفت طويلاً. قد يكون لي معه وقفة، وقد لا أتحمّل ذلك فأنساه ثانية.

هزيمة المنتصر

أحمد المرزوقي

أربكت المقاومة الأسطورية لحركة حماس الغرب، ودوّخت كبار استراتيجييه، وأحرجت الدولَ العربية التي خالفت توجّهات شعوبها حين سبحتْ ضدّ التيار وارتمت في أحضان الصهاينة تحت ذرائعَ واهيةٍ شَتّى، كما بعثرت مخططات دولة عربية كبرى كانت هي الأخرى على وشك التطبيع، لولا العملية المظفّرة في «7 أكتوبر» التي أصابت العدوّ الإسرائيلي في مقتل حين عفّرت في التراب غطرستَه المبنيّة على خرافة «الجيش الذي لا يقهر». كما أنّها أسهمت بشكل كبير في إسقاط قناع النفاق البغيض عن وجه الدول الأوروبية التي ظهرت على حقيقتها البشعة المتحيّزة تحيّزاً مطلقاً لإسرائيل، والمعادية عداءً صارخاً لكلّ ما له علاقة بالعروبة والإسلام. أما الولايات المتّحدة، فلا فائدة للحديث عن عدائها ما دامت هي حاضنة الطغيان، ومفرّخة المصائب، ومنتجة الكوارث، ومدمّرة الشعوب، و«طاعون العصر» كما وصفها الشاعر محمود درويش. وقد لعب الإعلام الغربي الذي تسيطر عليه اللوبيات الصهيونية دوراً فظيعاً في قلب الحقائق وتزوير الأحداث، لأجل تعبئة الرأي العام الغربي ضدّ العرب على العموم، والفلسطينيين على الخصوص.

وقد أدهشني، أنا المتابع لما يجري في قنوات الإعلام الفرنسي، ما شاهدته من فيض الحوارات والاستجوابات التي يتحامل فيها كبار الصحافيين على الشعب الفلسطيني وعلى مقاومته، وفي طليعتها حركة حماس. هو تحاملٌ لم أرَ نظيراً لفحشه وظلمه في الإعلام أبداً، إذ إنّ كلّ تلك القيم الإنسانية الجميلة التي كانت تتبجح بها فرنسا، من حقوق للإنسان وحرّية للتعبير وعدل وإخاء ومساواة، سقطت وتبدّدت كما يسقط ويتبدّد منديل ورقي في الماء، فأوّل ما يشدّ النظر ويُطرح في كلّ لقاء، مع الضيوف الذين تم اختيارهم على المقاس، التأكيد مسبقاً وبإصرار شديد على أنّ «حماس» حركة «إرهابية متوحّشة دمويّة» تعيش على قتل الأبرياء من الأطفال والنساء والشيوخ، وتستعمل المدنيين العزّل كأذرع بشرية لبلوغ مراميها. لذا، فمن حقّ إسرائيل الدولة «الديمقراطية» و«المتحضّرة» أن تسعى إلى تنحيتها من فوق التراب خدمةً للبشرية جمعاء. ولكن رغم احترافية ذاك الإعلام المتحيّز والمشبوه، ورغم قدرته الخارقة على التزوير والتضليل ورصف الأكاذيب وتزويق المُنكر، فإنّ الحقيقة أخذت تتجلى للرأي العام العالمي واضحة كفلق الصبح، فعددٌ لا يستهان به من المواطنين والصحافيين الفرنسيين أخذوا يعيدون النظر في موالاتهم الاحتلال الإسرائيلي، بعدما طارت عن أعينهم غشاوة الدعاية الكاسحة، واستحكمت لديهم القناعة ببهتانها وبإفكها العظيمين.

وفي غمرة هذا اللغط المثير للتقزّز والغثيان، انتفض مُتدخّل فرنسي على المباشر، وأخذ مجالسيه على حين غِرَّةٍ حين فاجأهم بهذا الكلام المُفحِم والصادم: «أيها السادة، كفى، تعني كفى... منذ أن رأيتُ النور وأنا لا أسمع عن إسرائيل إلا الخير، ولا عن العرب إلا الشر، حتى ترسّخ في ذهني أن الغرب وحده مَنْ يحمل لواء الحضارة ومبادئ الخير والإنسانية والفضيلة، وأنّ ما عداه هم مجرّد حشرات بشرية لا حقّ لها في العيش على هذه البسيطة. ولكن السيل بلغ اليوم الزُّبَى لمّا صارت الحقيقة ساطعة تفقأ حتى أعين العميان. لهذا، فلنتسلّح بشيء من الشجاعة والإنصاف، ولنسمّ الأشياء بمسمّياتها من دون وجل ولا تردّد، كي نقول بكلّ صراحة إنّ إسرائيل هي كيان إرهابي غاصب ومحتل، وما تقوم به أمام أنظار العالم المتفرّج هي حرب إبادة مخزية لم يعرف العالم لبشاعتها مثيلاً».

> أخذ مواطنون وصحافيون فرنسيون يعيدون النظر في موالاتهم الاحتلال بعدما طارت عن أعينهم غشاوة الدعاية الكاسحة

وتابع المتحدّث: «لو أصابها (إسرائيل) عُشْر ما أصاب الفلسطينيين من تخريب وتقتيل، لكنا قد أحيينا الحروب الصليبية ولاندفعنا لاجتياح الشرق الأوسط بكلّ ما نملكه من أسلحة دمار شامل». الوعي بالحقيقة أخذ يتنامى يوماً بعد آخر، ويكتشف العالم بأسره وجه إسرائيل البشع. ويكفي من باب الإيجاز فقط، أن نقتبس غيضاً من فيض، مما جاء على ألسنة بعض الشخصيات السياسية الأوروبية المرموقة وبعض الإعلاميين السويسريين والبلجيكيين والفرنسيين. فقد صدر أخيراً كتاب من حجم كبير أحدث ضجة كبرى، سميّ بـ «طوفان الأقصى.. هزيمة المنتصر» للكاتب جاك بو، وهو عقيد سويسري متقاعد عمل في أجهزة استخبارات بلده قبل أن يتولى مهامّ كبيرةً في الأمم المتّحدة. وفي إحدى المحاضرات التي دُعي إليها، صرّح الكاتب إنه لا يميل لا إلى إسرائيل ولا إلى العرب، وإنّما يقوم بعمله الاستخباراتي الصرف، محاولاً بفضل ما جمعه من وثائق لا يرقى إليها خيط من الشك، وجُلّها يأتي من إسرائيل نفسها، أن يقدّم لأصحاب القرار من جهة، وللقرّاء من جهة أخرى، الحقيقة عارية كما هي. وأوّل ما بدأ به هو التركيز على أنّ الصراع الفلسطيني الإسرائيلي لا يبتدئ من 7 أكتوبر كما يوهم بذلك الإعلام الغربي، وإنّما منذ الاحتلال الصهيوني لأرض هي ليست أرضه. لذلك يرى أنّ عملية طوفان الأقصى مقاومة بحتة لا يجوز تسميتها بالإرهابية ما دامت تندرج في سلسلة العمليات التي يقوم بها شعب يكافح لاسترجاع أرضه المغتصبة. وإذا كان نتنياهو، يقول الكاتب، قد نعت الفلسطينيين بحيوانات بشرية فماذا نسميه هو الذي سحق غزّة بما فيها من عمران وبشر؟ ويقول الكاتب متعجّباً: «كيف للحيوانات البشرية أن يكون لها من الأخلاق الفاضلة والقيم الإنسانية ما يجعلها تحرص على حسن معاملة رهائنها بشهادة الرهائن أنفسهم أمام الإعلام المرئي والمسموع». ويؤكّد أنّه إذا كانت إسرائيل قد نجحت في تخريب غزّة في إطار حرب غير متكافئة صمدت فيها «حماس» صموداً خرافياً أمام إسرائيل، ومن يقف بجنبها من دول عظمى وأخرى عربية، فإنّها «خسرت سمعتها خسراناً مبيناً لا يمكن بعده أن ترفع رأسها أمام المجتمع الدولي إلا خاسئاً حسيراً».

وبغضّ النظر عن هذا الكاتب الموضوعي والنزيه، فإنّ هناك صحافيين آخرين، وشخصيات سياسية وثقافية وازنة أخرى، أمثال الوزير الأول الفرنسي الأسبق ووزير الخارجية، دومينيك دو فيلبان، ورئيس «فرنسا المتمرّدة»، جان لوك ميلانشون المرشّح لخوض الانتخابات الفرنسية، هم مَنْ ينقذون حقاً ماء وجه فرنسا. فهل نشهد بداية النهاية للكيان الصهيوني الغاشم؟

(كاتب وناشط مغربي)

أيّ دور منتظَر لمروان البرغوثي؟

زياد بركات

لا تُعرف بالضبط أحوال القيادي في حركة فتح مروان البرغوثي داخل محبسه، لكن ما يتسرّب أنّه يتعرّض لاستهدافٍ يزداد خشونة منذ 7 أكتوبر/ تشرين الأول الماضي، إلى درجةٍ دفعت عائلته والمدافعين عنه إلى التحذير من أخطار تهدّد حياته. ولم يقتصر الأمر على هؤلاء، بل شمل الإدارة الأميركية وحكومَتَيْنِ في المنطقة، بحسب صحيفة واشنطن بوست، التي ذكرت أنّ هذه الحكومات أثارت موضوع الانتهاكات الجسدية التي يتعرّض لها البرغوثي مع إسرائيل. وبشهادة محاميه، فإنّ القيادي في «فتح»، الأسير منذ عام 2002، تعرّض للضرب المُبرّح قبل أسابيع قليلة، وشوهدت الكدمات فوق إحدى عينيه وعلى ظهره وقدميه.

هل هناك مخطّط إسرائيلي لاغتيال الرجل؟ لا شيء مُستبعَد، فهو مُرشّح لدور قياديّ محتمل في مرحلة ما بعد حرب الإبادة في غزّة، باعتباره يحوز إجماعاً لدى مناصري حركة حماس وقطاع وازن داخل «فتح» يرى فيه امتداداً أصيلاً للحركة، ويدفع باتجاه تزعّمه لها إذاً ما أمكن، لقطع الطريق على سيناريوهات خلافة محمود عبّاس، بما يحافظ على الإرث النضالي للحركة التي تماهت إلى حدّ كبير مع السلطة الفلسطينية، وبدا أنها تُحارب ضدّ نفسها وتاريخها من خلال مواقف هذه السلطة ورئيسها وتصرّفاتهما. لم تصرّح «حماس» علناً بشأن دور محتمل للبرغوثي، وهذا مفهوم، لكن التسريبات تُجمع على أنّها تُصرّ على إدراجه في صفقة التبادل، وترفض استثناءه ونفراً غير قليل من رفاقه الذين لا ينتمون إلى صفوفها، وهو ما يُحسب للحركة التي تُعلي من وطنيّة أدائها على حساب «فصائليّتها» في هذا الملفّ على الأقل، في مقابل غيابٍ شبه كامل لأي موقفٍ واضحٍ ومعلنٍ من السلطة الفلسطينية بخصوص البرغوثي، ما يُضمر موقفاً مسكوتاً عنه إزاء الرجل، الذي يراه بعضهم مُنافساً لا مناضلاً.

يُظهِر استطلاع أجراه المركز الفلسطيني للبحوث السياسيّة والمسحيّة، نُشرت نتائجه قبل أيام، أنّ البرغوثي سيكتسح أي انتخابات رئاسية فلسطينية مقبلة إذا نافسه فيها الرئيس محمود عبّاس، ورئيس حركة حماس إسماعيل هنية، بنسبة تصويت للبرغوثي تصل إلى 40% و8% لعبّاس و23% لهنية، والنتيجة متقاربة ولمصلحته لو أجريت الانتخابات بينه وبين عبّاس منفردَيْن أو بينه وبين هنية، ما يعني أنّ شعبية القيادي الأسير عابرة للفصائل وللقادة الذين يمسكون بزمام الأمور في الشارع وعلى طاولات المفاوضات. لكن الأمور على الأرض قد تكون أكثر تعقيداً وأقلّ مثالية منها في استطلاعات الرأي، فموازين القوى ليست بهذه البراءة، والموجودون في الساحة السياسية لن يغادروها بمحض رغبتهم، وكذلك قوى في الإقليم وفي العالم ترى مصلحتها في الدفع بمرشّحيها إلى الواجهة، بقوة السلاح أو المساعدات، وسواها. يُضاف إلى هذا أنّ جزءاً حاسماً من جاذبية البرغوثي وشعبيته يعود إلى أنّه أسيرٌ، وإلى خطابه الثابت الداعي إلى المقاومة، لكن ما سبق هو الشجرة التي تُخفي الغابة، والأخيرة هي حال حركة فتح التي ينتمي إليها الرجل، ولا يستطيع القيادة من دونها، ولن يحوز التأثير في غيابها، فالحركة أصبحت سلطةً لا تختلف عن المنظومة السياسية العربية، إن لم تكن أسوأ، ورجالها الذين كانوا فدائيين قبل «أوسلو» أصبحوا بيروقراطيين وموظّفين كباراً ومستثمرين ورجال أعمال وضبّاط شرطة، في منظومةٍ ترتبط بإسرائيل، ما جعل الحالة الكفاحية التي كانوا يُمثّلونها تتراجع لمصلحة أوضاع تترسّخ وتتكرّس وتصبح معها المقاومة ضد إسرائيل ضدّ هؤلاء أيضاً، وضدّ مصالحهم الخاصة والعائلية، ما يجعل من حالة البرغوثي مصدر حرج لهم، وربما خطراً تنبغي محاربته، صدوراً عن شعورٍ بالذنب تجاه الماضي الشخصي لكل فرد في هذه النخبة أو عن خشية من فقدانٍ ما توحّش وتضخّم من مكتسبات.

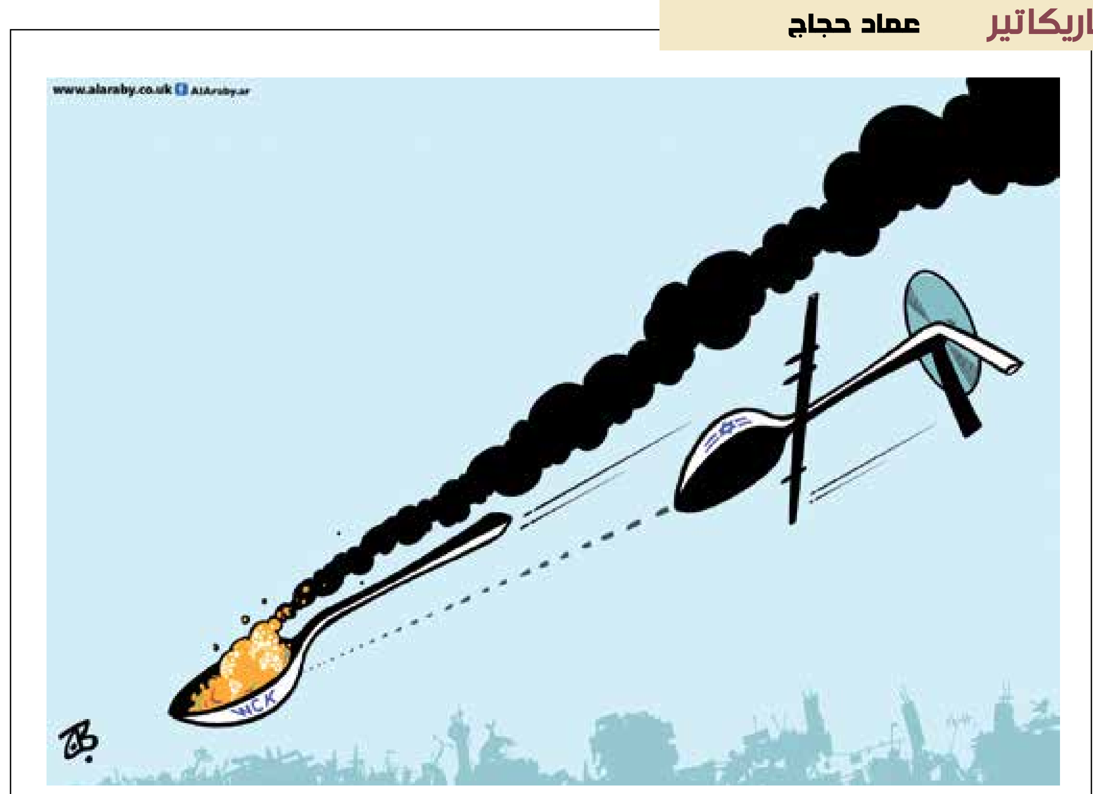

كان «الطوفان» للأقصى وسيبقى

حلمي الأسمر

يرى المراقب لما يجري في ساحات الإعلام الشعبيّ ومنصّات التعبير المُحَوسَبَة أنّ هناك محاولة مستميتة لتصدير الأزمة الصهيونية الطاحنة إلى الشارع العربي، عبر تشغيل ملايين حسابات الذباب الإلكتروني الهادف إلى شقّ الصف العربي، وتحويل التأييد الجارف للمقاومة الفلسطينية البطلة، إلى معركة عربية - عربية، وقودُها ذباب أعمى يحرّكه الذكاء الاصطناعي، ويأتمر بمحرّكات تعمل في الظلام، لإشعال نار الفتنة وقطع الطريق على أي حراكٍ شعبيٍّ هادر يردف المقاومة، ويحمي ظهرها، ويمدّها بما تحتاجه من إسناد ولو كان وجدانياً، وهو أمرٌ لا يقلّ عن الإسناد المادي بالسلاح والعون الطبي والإغاثي.

الشارع العربي، منذ اليوم الأول لانطلاق «طوفان الأقصى»، شخص ببصره للمقاومة التي أنجزت في ساعات ما لم تستطع أن تنجزه كلّ الدول العربية والإسلامية في سنوات، وهو أمرٌ يُحسب لها لا عليها، ومن المُشين والمُعيب أن تنزلق بعض التعبيرات إلى وصف هذه المقاومة بأوصاف سخيفة مصنوعة في مختبرات العدوّ، ومن أسفٍ أن بعض الجهّال والسطحيين يتلقفون الطُعم الصهيوني، ويردّدون الروايات الصهيونية ومن يساندها بلغة عربية مشبّعة بالأحقاد الصغيرة، التي تستدعي أيام الفتن والمحن السابقة.

كل المعلومات تقول إنّ أياماً عصيبةً جداً يعيشها الكيان الصهيوني، إذ تطحنُه الأزمة الأكثر خطورة منذ قيامه، ولهذا يحاول أن يُشغّل كلّ إمكاناته لتبديد أي جهد عربي أو إسلامي، شعبياً كان أو رسمياً، لمنع إسناد المقاومة ودعمها حتى ولو بالجهد المعنوي، والمفترض هنا أن يتجنّد عقلاء الأمة كلّهم للتصدّي لهذه الفتن والتحلّي بأعلى درجات الحكمة، ولا يعني هذا أبداً التوقّف عن إسناد المقاومة بكل جهد ممكن، بل الانصراف بالكلّية نحو الهدف الأسمى، وعدم الانتباه والانشغال بما يثار من سفاسف ونتوءات تافهة.

خُذلان غزّة في معركتها المصيرية اليوم هو خذلان للوطن العربي كلّه. تقف غزّة اليوم على خط الدفاع الأول عن الوطن الكبير، وفي حال هُزِمَت المقاومة، لا سمح الله، ولن تهزم بعونه تعالى، فستكون استحقاقات هذه الهزيمة شديدة السواد والسوء على كل الوطن العربي. ما يجري في غزّة وفلسطين كلها معركة كل العرب والمسلمين وليست معركة الفلسطينيين، وأي فهم يحاول المُرجفون ترويجه خارج هذا الإطار هو محض افتراء، ويصبّ في خدمة الاستبداد وأنظمته، التي يسرّها أن ترى هزيمة شعب مقاوم كي لا تترسخ أمثولة قدرة الشعوب على التغيير والانتصار والإنجاز، والأهم أن تبقى منظومة الاستبداد تسود المشهد.

أما ما يقال عن «انحراف» الحراك العربي الشعبي، ودخوله مناطق محظورة في التعبير، وخرقه ما يسمى «السقوف» المحتملة، فهو يعود إلى البشاعة المفزعة التي يرتكبها العدوّ الصهيوني في فلسطين، وهو أمر يُفقد أي عاقل اتّزانه، ويدفعه دفعاً قوياً إلى التعبير بشكل مختلف عن مشاعره، خصوصاً أن تلك البشاعة الصهيونية لم تُواجَه بما تستحقّ من النظام العربي الرسميّ على العموم، الذي لم يقف عند حدّ خذلان فلسطين وشعبها، بل ذهب بعضُه إلى أبعد من هذا عبر إسناده العدوان بأسباب الحياة، وهو أمر يدفع المرء إلى الجنون، ويمنعه من عدم التسامح مع موقفٍ كهذا. إنّ الجرح الذي أصاب الضمير الجمعي العربي جرّاء هذا الموقف المخزي أكبر من أن يتسامح معه جمهورٌ متّزنٌ وعاقل. أكثر من هذا، يشعر هذا الجمهور أنّ ظهره أصبح مكشوفاً للعدوّ على نحو صارخ، فما الذي يضمن له ألا يمتد إليه العدوان الصهيوني البشع بعد أن يفرغ من بشاعاته في فلسطين؟ لهذا يتحرّك الجمهور العربي الغاضب بدافع الدفاع عن النفس، فهو إذ يدعم غزّة وفلسطين ومقاومتها، يدعم نفسه ويحتاط لأي عدوانٍ محتمل قد يناله أيضاً. وبهذا المعنى، هو يقف مع نفسه، إذ يقف مع فلسطين ومقاومتها.

المطلوب اليوم من كل مواطن عربي حرّ شريف أن ينتبه إلى الأخطار القادمة، وأن يوجّه بوصلته إلى الأقصى وحماته، ومن هم حوله من بلاد خصّها الله بالقداسة والمباركة، وأن ينشغل بما يدعم هذه القضية، متعالياً فوق كلّ من يبدد الجهد ويُذهب الريح، «ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم».

(كاتب من الأردن)

أميركا وإسرائيل... رعاية أم شراكة؟

فارس الخطاب

العلاقات الأميركية الإسرائيلية متميّزة دائماً، تحصل إسرائيل على ما تريدُه من أسلحةٍ ومواقف دوليةٍ وأمميةٍ، قانونيةٍ وإعلاميةٍ، مقابل ضمان استمرار القوى الفاعلة في المؤسّسات النافذة في دوائر الحكم والقرار في واشنطن بدعم المؤسّسة الرئاسية، وتهيئة الأجواء والشارع الأميركي لاستمرار هذا الحزب أو ذاك في حكم البلاد، وفي خلق قاعدة من الساسة حكّام الولايات والمُشرّعين، تمنح أو تدحض أي خطوةٍ تحدّد صلاحيات الرؤساء الأميركيين وقراراتهم، تتقاطع وأمن إسرائيل ومصالحها. لقد جرت الأمور دائماً على هذا المنوال، وبشكل واضحٍ وضامنٍ لتفوّق إسرائيلي على قدرات كلّ الدول العربيّة مجتمعةً، وفي العمل أيضاً على تحسين صورتها ودورها في الشرق الأوسط بما يعزّز فرص التعاون والنجاح لكلّ دول المنطقة فيما لو تنازلت عن شعاراتٍ رفعتها أزيد من 70 عاماً تطالب بانسحاب إسرائيلي من الأراضي العربية المحتلّة إلى حدود 1967، وعودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم. وفعلاً، حدث ذلك بشكل دراماتيكي خلال العقدين الأخيرين، فطبّعت دولٌ عربيةٌ وأخرى شرقُ أوسطيةٍ مع إسرائيل بنيّة حلّ القضية الفلسطينية من خلال «الدولتين»، وحلّ ما عجزت الحروب المتعدّدة عن حلّه.

ما جرى في السابع من أكتوبر/ تشرين الأول (2023) مثّل قنبلة من العيار الثقيل بشأن هذه الرؤية كلّها وخطواتها العملية، وبرزت رؤية جديدة بمعايير مختلفة تماماً، فرغم رفض المجتمع الدولي عموماً، والولايات المتّحدة خصوصاً، ما قامت به حركة حماس حين أسرت عشرات الإسرائيليين خلال توغّل رجالها في مناطق «غلاف غزّة»، إلا أنّ الوجه الآخر للصورة يُقرأ بشكل مختلف، وربما يفضي إلى ما عجزت عن تحقيقه مؤتمراتٌ ولقاءات وقرارات وُضعت واختُرقَت وجُدّدَت خلال سبعة عقود ماضية. فبحسب رئيس المكتب السياسي لحركة حماس إسماعيل هنية، بعد لقائه المرشد الإيراني علي خامنئي، فإنّ عملية طوفان الأقصى «حطّمت أسطورة» الجيش الإسرائيلي الذي «لا يقهر»، وأنّ «حرب غزّة هي حرب عالمية» والهيئة الحاكمة في الولايات المتّحدة هي «الشريك الرئيس في هذه الحرب».

نعم، حقّقت العملية مكاسبَ تتعلق بإعادة القضية الفلسطينية إلى واجهة الاهتمام الدولي، وحطّمت إلى حدٍ كبيرٍ أسطورة «الجيش الذي لا يقهر» و«الجيش الأكثر أخلاقاً»، ووضعت إسرائيل بما ارتكبته من جرائم إبادة بحقّ شعب غزّة الأعزل في مواجهة مع كلّ شعوب الأرض، وأحرجت الحكومات، فلم يستطع بعضُها الاستمرار في دعم دولة الاحتلال التي تمادت في قتل الأبرياء، ولا تجاهل كلّ النداءات الأممية والدولية والتظاهرات «المليونيّة» من أجل إيقاف هذه الحرب، وكانت الولايات المتّحدة من بين الدول التي أحرجتها سياسة رئيس وزراء دولة الاحتلال بنيامين نتنياهو، وإن كانت أقلّها استجابة لصوت الضمير الإنساني العالمي والقوانين الدولية التي وُضِعَت لكبح جماح أي مظهر من مظاهر الإبادة الجماعية.

لقد فاجأت واشنطن إسرائيل عندما امتنعت عن التصويت على قرار تبنّاه مجلس الأمن، في 25 من الشهر الماضي (مارس/ آذار)، طالب بوقفٍ فوري غير مشروطٍ لإطلاق النار في غزّة، والإسراع بإدخال مزيدٍ من المساعدات إلى القطاع، وهو ما أثار غضب نتنياهو ودفعه لإطلاق انتقادات لاذعة بحق الرئيس الأميركي جو بايدن، كما ألغى زيارةً لوفدٍ من كبار المسؤولين الإسرائيليين إلى واشنطن لبحث الهجوم المرتقب على مدينة رفح في جنوبي قطاع غزّة. من الواضح أنّ إسرائيل لا تعترف بقرار مجلس الأمن، فاستمرّت في قصف البيوت في رفح واستهداف المدنيين بالطائرات المُسيّرة وأسلحة القنص، وبتهديدها بشنّ العملية العسكرية على رفح، ولم تكترث كثيراً بما جاء به وزير الخارجية الأميركي أنتوني بلينكن من أجل إنهاء هذه الحرب والتوافق على صيغةٍ لإطلاق سراح المحتجزين الإسرائيليين لدى «حماس»، وهو ما قد يفضي، بحسب محلّلين، إلى أن يذهب الرئيس الأميركي إلى تقييد المساعدات العسكرية لإسرائيل أسوةً بالحكومة والبرلمان الكنديين.

> الخلاف الأميركي الإسرائيلي جدّيّ، والجانبان في حالة من التناقض

الخلاف الأميركي الإسرائيلي جدّيٌ، والجانبان في حالة من التناقض، تحوّلت تدريجياً إلى عدم ثقة، وهو ما يمكن أن يسمّى في علم السياسة «أزمة»، وإذا لم تتشكّل «خلية أزمة» تتدارك أسبابها فإن الهوة بين الرئيسين قد تتّسع لتخرُج عن السيطرة، وهي بحسب نتنياهو «ستضر بجهود الحرب الإسرائيلية». هناك أصواتٌ مهمّة في مجلس الشيوخ الأميركي ترى أن نتنياهو «عقبة أمام السلام»، ولا بدّ من انتخابات داخل إسرائيل لإزاحته عن سدّة الحكم، فيما يرى أعضاء آخرون في مجلسي الشيوخ والنواب أنّ نتنياهو يعمل على «توظيف العلاقة بين الولايات المتّحدة وإسرائيل لصالح اليمين». إنّ واقع العلاقة الأميركية الإسرائيلية أكبر في حقيقة الأمر من تغيّر طفيف في السياسة الأميركية كامتناع واشنطن عن التصويت على قرار في مجلس الأمن له تأثير محدود على الأرض أو من خلال تصرّفات رئيس الحكومة الإسرائيلية، فالبلدان، بحسب وزير المالية الإسرائيلي اليميني المتشدّد بتسلئيل سموتريتش، «شريكان»، والولايات المتّحدة ليست الدولة «الراعية» لإسرائيل حتى تفرض عليها ما يجب أن تفعله للحفاظ على أمنها.

(كاتب عراقي في لندن)

حزب الله من تحرير فلسطين إلى «مشاغلة» إسرائيل

دلال البزري

وقعَ ما كان لا بدّ منه في جنوب لبنان. رغم التعتيم الإعلامي الشامل، وصلت أخبار أهالي قرية رميش الحدودية، وهي بلدة مسيحية مارونية، ما زال يقطنها ستة آلاف من أبنائها، رغم المخاطر. يروي رئيس بلديتها، ومعه بعضُ سُكّانها، أنّ الأهالي هناك تنبّهوا منذ أيامٍ إلى حركة غريبة لسيارتَين مدنيتَين من دون لوحات، توقّفتا بزجاجهما الداكن أمام إحدى مدارس البلدة، وما أن اقترب منهما أحد المواطنين حتى تبيّن له أنّ فيهما «عناصر حزبية» تحمل صواريخ كورنيت تُريد نَصبَها في القرية. سارع المواطن إلى قرْع أجراس الكنيسة، وتقاطر الناس، وحضرت دورية للجيش اللبناني، أغلقت فور وصولها الطرق بالسواتر الترابية، وفصلت بين رميش وقرية عيتا الشعب الشيعيّة، بدعوى «منع المسلّحين من استخدام أراضي البلدة منصّة للقصف».

نفى حزب الله الحادثة، واعتبرها «أخباراً كاذبة وملفّقة»، وكذلك فعل إعلامُه «الملتزم»، ذلك أنّ الحادثة تحمل نقيض الرسالة التي يُودّ الحزب أن يصدّقها العالم، وهي أنّ الجميع معه في لبنان. وتطرح حادثة بلدة رميش سؤالاً عن جوارها المباشر؛ عن أهل الجنوب. ما رأيُهم بما يحصل لهم؟ هل هم موافقون، متحمّسون، راضون عن حرق قراهم وحياتهم؟ هل ما زالوا عند فكرة الحزب العزيزة أنّ «المشاغلة» هذه، كما حرب عام 2006، سترفع مكانة الحزب/ الشيعة، كما يروّج منذ عقود؟

إحصاء تلو الآخر يبيّن أن بقية اللبنانيين لا يريدون الحرب، في مقدمتهم المسيحيون ثم الدروز، فالسنّة. تمكّن حزب الله من إيجاد رغبة لدى بعض أحزاب السنّة، الجماعة الإسلامية تحديداً، أي الإخوان المسلمين اللبنانيين، بـ«دكاكين» مسلّحة في الجنوب يطلقون منها صواريخهم، لعلّ لهم بذلك أجراً في محاصصة مُقبلة بعد توقّف الحرب. أما باقي الأقليات، من طوائف صغيرة، وأفراد وفنانين وكتّاب، وبعضهم متحمسون لفلسطين، فلا يريدون هذه المشاغلة، وتنال منهم الكوابيس عندما يتخيّلون تطوّرها (المشاغلة) نحو حربٍ على غرار الهجوم الإسرائيلي على غزّة. اللبنانيون مرهقون، فالحزب قبل خوضه هذه المشاغلة قضى على الدولة ومؤسّساتها واقتصادها وأمنها، قايض الفساد العميم بـ«الحفاظ على سلاحه». وصارت الفوضى العارمة جزءاً من وجوده، رغم تفوّقه المسلّح وفرض إرادته على اللبنانيين، في السلم والحرب. تذرّع بتفوّقه الإقليمي بقتله السوريين حفاظاً على بشّار الأسد وحمايةً لمصالح إيران. وللمرّة الألف، عُقِدت علاقة التبعية بين الحزب وطهران، وصار واضحاً أنّه ليس هو من يأخذ القرار بتحويل المشاغلة إلى حرب. تأمره إيران بتنفيذ أجندتها أو بتجميدها أو بتأخيرها أو حتى بوقفها. أكثر من ذلك، إيران مطمئنة إلى الولايات المتحدة التي تدخّلت لمنع تحوّل المشاغلة إلى حرب، ويستقوي إعلام حزب الله بهذه «السكينة» المستجدّة بين أميركا وإيران، فيدافع عن نقطته الأساسية؛ سلاح الحزب، بالقول إنّ الجميع صار يعترف به: أميركا وأوروبا وإسرائيل وغالبية دول الخليج العربي. جميعُهم يقرّون بأنّ «سلاح الحزب ليس موضع نقاش».

والمقارنة بين مشاغلة اليوم وحرب العام 2006 تسير في الركب نفسه. أبقت حرب 2006 السلاح في يد الحزب، واليوم أيضاً، سوف تفضي النتيجة إلى النصر نفسه «التاريخي الإلهي الاستراتيجي»، وهو نصرٌ مكّن الحزب من لبنان، وأفضى إلى ما نعيشه اليوم. كان هذا التمكين يقوم على صوتٍ عالٍ وعضلات، بل صار تقليداً أن يظهر الأمينُ العام دائماً بجرعة استقواء بخطابه التصعيدي المتكبّر، المسرور بخوف إسرائيل منه، فيعيد ويُحيي هيمنته على لبنان. وعبارة «أهون من بيت العنكبوت» لوصف ضعف إسرائيل وهزالها أمام جبروت صواريخه الدقيقة صارت شعاراً، كلمةً مأثورةً، ومن البداهات. أما الصلاة في القدس، فكان لها صورتها الأيقونة، ووعد أصحابها بـ«إزالة إسرائيل». منذ أربعة أعوام، يتصدّر بشّار الأسد وحسن نصر الله وقاسم سليماني وإسماعيل هنية وعبد الملك الحوثي، وغيرهم، الصلاة وخلفهم المسجد الأقصى، ووعد «سنصلي في القدس». منذ أسَّست إيران «يوم القدس» في آخر جمعة من شهر رمضان، يُحيي الوعد بإزالة إسرائيل والصلاة في القدس ليالي الجماهير المُصدّقة.

الأمثلة لا تنْضب عن تلك الثقافة التي عزرها حزب الله بين أبناء بيئته والبيئات الأخرى النظيرة. ففي معركته المحلّية مع خصمه «القوات اللبنانية»، وفي حادثة دموية وقعت قبل ثلاث سنوات في أحد أحياء بيروت، نفخ حسن نصر الله في روح سلاحه على الشاشة، وأعلن للمرة الأولى أنّ عدد مقاتلي الحزب «الجاهزين للقتال يبلغ مائة ألف، هذا غير الحلفاء والمنظمّات غير العسكرية».

خلال ستة أشهر، دمّرت مشاغلة الحزب البيوت الجنوبية وأرزاق أهلها (زيتون وتبغ)، هجّرت مائة ألف منهم، قضت على الماشية والمزروعات، أغلقت المدارس، قتلت حوالي 300 جنوبي غالبيتهم من أطر الحزب وبعض قياداته. وعلى بعد أميال، هناك مجزرة غزّة التي لم يوقفها كل هذا الاستنزاف. ينتظر الحزب أن يعامَل الجنوب الآن كما عومل في حرب 2006. والواقع أنّ هناك انقساماً شعبياً وحكومياً (حتى مع حكومة لحزب الله) بشأن أحقية أهل الجنوب بهذه المساعدات من دولة أعلنت إفلاسها، وعجزت عن التعويض على متضرري انفجار مرفأ بيروت قبل ثلاثة أعوام، وحزب الله هو أول المتهمين بالمسؤولية عن الانفجار، وأمينه العام هو الذي عطّل استمرار التحقيق فيه. مبالغ التعويض باهظة لا تلبّيها ميزانية الدولة، سواء تعلق الأمر بتعويضات المرفأ أو تعويضات الجنوب. أما المناهضون للحزب فحجتهم: «الدولة ليست مسؤولة عن الجنوب إنما المسؤول هو الحزب الذي أخذ قراراً بتشغيل آلة الدمار في الجنوب اللبناني».

> عُقِدت علاقة التبعية بين حزب الله وطهران وصار واضحاً أنّ الحزب ليس هو من يأخذ القرار بتحويل المشاغلة إلى حرب

«وحدة الساحات» التي أُعلن عنها في بداية الحرب على الشعب الفلسطيني في قطاع غزة تقلّصت إلى حدودها الدنيا. بشّار الأسد لم ينْبس ببنت شَفة بعد ضرب قواعد عسكرية إيرانية وسوريّة قرب مطار حلب. وزارتا الخارجية الإيرانية والروسية أدانتا الهجوم، كما لو أنه حصل في أراضيهما. المليشيات العراقية النظيرة خرجت من المعركة منذ ثلاثة أشهر، ولم نعد نسمع لها صوتاً، فيما يعطّل الحوثيون الملاحة الدولية بصواريخهم وقرصنتهم، وبضع رشقات باتجاه إيلات، وبيانات وحشد تظاهرات هائلة. ولا يبقى في «الساحة» إلا حزب الله يشاغل بمفرده ويتفاخر بأنّ كلّ المراسلين الدوليين لا يتفاعلون مع غيره. لكنّ الحزب اليوم أمام معضلة يمكن وصفها بالوجودية، فعليه، في أدنى تقدير، أن يسلّم سلاحه، ويطبّق قرار مجلس الأمن 1701، وينسحب من الجنوب. وفي أقصى تقدير، أن يُسلّم سلاحه للجيش اللبناني. في الهامش، بين الأقصى والأدنى، معركة فكرية مفادها أنّ سلاحه لم يعد له ما يبرّره، فيفقد بذلك شرعية السلاح واستقوائه به، لكنه يبقي عليه، من دون وظيفة مقنعة، وتصبح فكرتا تحرير فلسطين والصلاة في القدس جزءاً من ماضٍ يجب نسيانه.

إذاً، إما تسليم السلاح أو خوض معركة انتزاعه على يد إسرائيل. وفي هذه الحالة، نحن وهو أمام كارثة إنسانية، ويتكرّر التاريخ هذه المرّة بغير ما سجّله كارل ماركس. فبدل أن يعيد التاريخ نفسه، مرّة على شكل مأساة ومرّة على شكل مهزلة، يعيد تاريخ لبنان نفسه مأساةً مرّتين، مرّة في عام 2006، وأخرى في حرب راهنة. لا، بل نحن ننتقل اليوم من تراجيديا 2006 إلى تراجيديا 2024، إن انتهت الحرب هذا العام.

(كاتبة لبنانيّة)

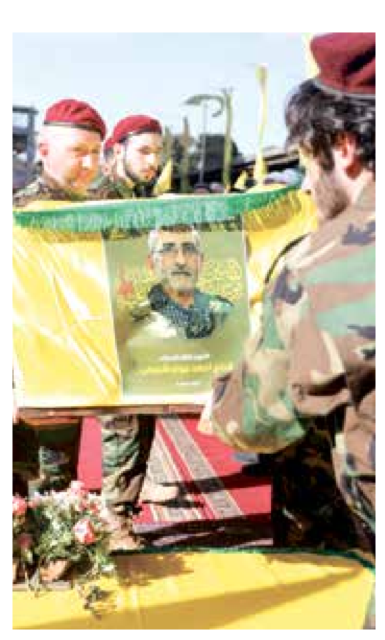

يشيّعون القيادي في حزب الله أحمد شحيمي في ضاحية بيروت الجنوبية، 1 إبريل
(إبراهيم عمرو/فرانس برس)

حسابات اليوم التالي للحرب

محمد أحمد بنّيس

كشفت حركة حماس، قبل أيام، تسلّل عناصر تابعة للمخابرات الفلسطينية في رام الله إلى قطاع غزّة، وأعلنتْ إفشالها ما سمّته مخطّطاً كانت هذه العناصر تعتزم تنفيذه، بتنسيق مع قوات الاحتلال. وبذلك تستجدّ الأسئلة بشأن النيّات والأوّليات والاستراتيجيات التي تقود القوى الإقليمية والدولية المعنية باستخلاص عائدات الحرب وإعادة توظيفها بما يخدم مصالحها. تعيد واقعة التسلّل إلى الواجهة خيارَ عودة السلطة الوطنية الفلسطينية إلى قطاع غزّة، الذي سبق أن طرحته الإدارة الأميركية في بداية الحرب، وهو ما يعكس، في ما يبدو، تبدُّلاً في موقف حكومة بنيامين نتنياهو التي كانت تعارض هذه العودة، ما يعني قبولها بعودة محسوبة للسلطة إلى القطاع، من دون أن يعني ذلك تخلّيها عن السيطرة الأمنية عليه. ويأتي هذا التبدّل بعد أن فشل مخطّطها باستدراج عشائر غزّة وعائلاتها ووُجهائها نحو التعاون والتنسيق معها في إدخال المساعدات الإنسانية وتوزيعها.

في السياق ذاته، تبدو الواقعة كأنها اختبارٌ دالٌّ على الجاهزية الأمنية والاستخبارية والسياسية للمقاومة الفلسطينية، في ظلّ حالة الفوضى والدمار الهائل الذي يشهده القطاع بعد ستة أشهر من العدوان الإسرائيلي. وهو ما يعيد طرح السؤال الذي يتردّد في كواليس السياسة الدولية: إلى أي مدى نجحت قوات الاحتلال في ضرب البنية التحتية والعسكرية للمقاومة بعد أشهر متواصلة من القصف والتقتيل والتطهير العرقي والإبادة الجماعية؟ يقول المنطق إنّ نجاح المقاومة في رصد عناصر المخابرات الفلسطينية بعد دخولها القطاع يعني أنّها لا تزال تحتفظ بالحد الأدنى، على الأقل، من قدراتها الأمنية والقتالية.

لقد نجحت المقاومة، حتى اللحظة، في إبقاء سؤال «اليوم التالي للحرب» مفتوحاً يشغل الحكومة الإسرائيلية والقوى الإقليمية والدولية المعنية، فغياب خطّة إسرائيلية واضحة حول هذا اليوم يجعل «النصر» على المقاومة أمراً بعيد المنال. كذلك، لا تبدو الدول العربية المعنية متحمّسةً لدخول قوات عربية إلى قطاع غزّة، لأنّ خياراً كهذاً سيحوّلها إلى قوّات محتلّة ومتعاونة مع الاحتلال. يُضاف إلى ذلك ما يبدو قناعةً بدأت تتشكّل في أكثر من عاصمة عربية باستحالة اجتثاث المقاومة مع تجذّر حاضنتها الشعبية والاجتماعية، ليس فقط في غزّة، بل في عموم فلسطين، بعد أن نجحت في إعادة القضية الفلسطينية إلى صدارة الأحداث في العالم.

على الصعيد الدولي، وعلى الرغم من محادثات إسرائيلية أميركية سابقة بشأن تشكيل قوات دولية لحفظ السلام في غزّة تتولى تنظيم الأمن والإشراف على إدخال المساعدات وتوزيعها على السكان، إلا أنّ استمرار المعارك في غزّة، وتضاربَ ما يعلنه الجيش الإسرائيلي مع الوقائع على الأرض، وتخبّط حكومة نتنياهو في إدارة التناقضات الداخلية الموازية للحرب، مع استمرار المظاهرات المطالبة بعقد صفقة تبادل مع «حماس» تُعيد الرهائن المحتجزين، ذلك كلّه يجعل إدخال قوات دولية إلى غزّة مغامرةً غير محسوبة العواقب، سيما أنّ معظم ما صدر عن مراكز البحث والتفكير الغربية لا يقدّم صورة متكاملة في هذا الصدد، بسبب الحسابات الإقليمية والدولية المعقّدة لليوم التالي للحرب. فالمجتمع الإسرائيلي، على اختلاف مكوّناته، يُدرك أنّ الحرب الحالية ستحدّد مستقبل إسرائيل لعقود مقبلة، وما يحدُث في غزّة لا يختلف عن «حرب الاستقلال» (1948). فقد تداعت سرديات إسرائيلية كانت راسخة قبل 7 أكتوبر، والاستماتةُ التي تواجه بها المقاومة توحّشَ آلة القتل الإسرائيلية تخلط الأوراق في الإقليم والعواصم العربية والغربية.

إضافة إلى ذلك، لا ينفصل اليوم التالي للحرب عن حزمة ملفّات حسّاسة تؤرّق إسرائيل والولايات المتّحدة، وفي مقدّمها الملف النووي الإيراني، ذلك أنّ إخفاق إسرائيل في القضاء على المقاومة سيزيح، بالضرورة، استهدافَ النووي الإيراني عن صدارة أولوياتها، على الأقل في المنظور المتوسط، وهو ما يمنح طهران هامشاً أوسع، ليس فقط في الذهاب بعيداً في طموحاتها النووية، بل أيضاً في إدارة نفوذها المذهبي والسياسي في الإقليم بحساباتٍ جديدة، لأنّ الإخفاق الإسرائيلي سيشكّل ضربة موجعة لمحور التطبيع العربي الإسرائيلي التي تعتبره خطوةً نحو إقامة تحالفٍ عربيٍ إسرائيليٍ ضدّها.

السّودان ودبلومَاسِية أهلِ الكَهف

جمال محمد إبراهيم

1

إذا كانت الكتبُ السماوية تأمر البشر بالاستقرار فيكون الإطعام، وبالسلام فيكون الأمان، فإنّ ذلك ما ارتضته الأمم وتوافقت عليه في مواثيق رتبتْ أحوالها وأوضاعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. سنرى أنّ تلك المواثيق والاتفاقيات التي ابتدعها البشر لا تبتعد عن تلك الأوامر الرّبانية إلا بقدرٍ طفيف، وهي بلغة الزّمن الماثل صيغٌ للتعاون الدولي والتعايش السلمي بين البشر، وذلك ما يندرج بلغة العصر تحت مظلة ما يعرف بالدبلوماسية المتعدّدة الأطراف.

تلك هي الدبلوماسية التي قنّنتها الأطرافُ التي تُشكّل ما يُعرف بالمجتمع الدّولي، وهي التي تستهدف توفير الاستقرار بمعناهُ السياسي والاقتصادي، بما يشمل الأمن وحماية البشر والمنافع. لذلك، تجد عبارة «حفظ السلم والأمن الدوليين» في لُبّ كلّ المواثيق والمعاهدات الدولية التي تحكم المجتمع الدولي وتضبط سلوكياته، منذ تحوّل البشر من شعوبٍ وقبائل تتقاتل إلى ممالك ودول واتحاداتٍ تتعاون. تكون الدبلوماسية، إذاً، جملة الآليات والأساليب والفنّيات التي يتم عبرها تجنّب الصراع وتقريب التصالح، فلا جوع ولا خوف، بل استقرار وأمان.

2

هذه السطور عن السودان، وعن اكتمال عام من حربٍ ضروس لم يهتدِ مشعلوها إلى التواضُع لابتدار حوارٍ وتفاوض يخرجان بلادهم من ويلات الدّمار وإفناء البشر، وإحراق مؤسّسات الدولة وهياكلها جميعها. إنّ الحوار والتفاوض هما السبيلان الوحيدان المتاحان لحلّ الخلافات بحُسنِ التفاهم السلميّ، لا بسوءِ السلاح المُدمّر.

ويتردّد كاتب هذه السطور في تصنيف الحرب في السودان، فهي حربُ بلدٍ مع نفسه قضى فيها السودانيون أنفسهم على أخضر بلادهم ويابسها، فلا يصنّفها من وجوه صراع مع عدو خارجي، كما لا يصنفها حرباً أهلية بين طرفين يتصارعان داخل حدودهما. وإنك لو أجلتَ بصرك فسترى من حسبوا أنفسهم وسطاء وأهلَ خير، من كلِّ حدبٍ وصوْب، إقليميين ودوليين وحاملي أجُندات، قد تسمع من بعضهم قولاً عن حرب السودان إنها حربٌ منسية ولا مكان لها من الإعراب من بين كلّ الحروب التي عرفها الناس. قبلها اندلعتْ حربٌ بين روسيا وأوكرانيا، وبعدها اندلعتْ أخرى في قطاع غزّة مع دويلة إسرائيل. لكنّ حرب السودان لا تشبه هذه ولا تلك. القاسمُ المشترك بين تلك الحروب الثلاث، وإنْ اختلفت مسبّباتها، هو الهوان الذي اعترى آليات المجتمع الدولي وأقعد قدراته على احتواء مسبّبات مثل تلك الحروب، فيما لا يخفى عن أعين المجتمع الدولي تورّط فاعلين خارجيين في صبّ زيت الفتنة على نيران الحروب الثلاث. لم يُخفِ الاتحاد الأوروبي ولا الولايات المتّحدة خطوط إمداداتهما لأوكرانيا، كما لم تُخفِ الولايات المتّحدة خطوط إمداداتها للحليف «المُبجّل» في الشرق الأوسط؛ دويلة إسرائيل الساعية إلى تدمير الفلسطينيين دماراً شاملاً بسلاح أميركي. ... أمّا عن السودان فقد اتبعت دبلوماسية جنرالاته سبيلاً آخر.

> دبلوماسية جالسة في مقاعد المتفرّجين خارج البلاد، فيما الصراع مُحتدم بين متصارعين لا يدركون أيّ بلدٍ أضاعوا

> هل في جنرالات الخرطوم من سمع عن مشاركة جيش السودان ضمن قوات في أول مهمّة عسكرية للأمم المتحدة في أزمة الكونغو عام 1960؟

3

فوجئ مجلس الأمن في المنظمّة الأممية بتقديم جنرالات السودان، الذين صاروا حكّامَ أمرٍ واقعٍ في الخرطوم الغائبة، شكوى في أكثرَ من 40 صفحة، يتهمون فيها ثلاث دول أعضاء في الأمم المتحدة بالتورّط في حرب تدور رحاها داخل السودان، يخوضها متمرّدون سودانيون ضدّ جيش الدولة السودانية الرسمي. قد يعجب المرء حين يسمع أنّ دولة عربية يشكوها السودان إلى الأمم المتحدة، فيما للسودان ولتلك الدولة العربية المُتهمة عضويتهما الكاملة في منظمّة إقليمية هي جامعة الدول العربية (!) والأعجب أيضاً، أن يشكو السودان إلى الأمم المتحدة دولتين أفريقيتين أُخْرِيَيْن جارتين له، يشاركهما السودان عضويةً كاملة في منظمة إقليمية أفريقية هي الاتحاد الأفريقي.

ماذا يقال عن جنرالات السودان وقد توغّلوا من قبل في مضيهم الشرير إلى إجهاض ثورة عظيمة خاضها الشباب السوداني، أسقط عبرها نظاماً ظالماً جثم على صدور آبائهم وأمهاتهم 30 عاماً؟ فتيات وفتيان تفتّحت عيونهم على الدنيا ليجدوا جنرالاً اسمُه البشير يحكم بلادهم لا يعرفهم ولا يعرفونه، أعلن جنرالاته وقوفهم الكاذب لنصرة تلك الثورة العظيمة، غير أنّ لهم ما أخفوه من معاول حفروا بها مقبرة لتلك الثورة، وغيّبوها تماماً. ها هُم الآن وقد قطعوا، هُم ومن يصارعونهم، أشواطاً بعيدةً في دمار البلاد، يسارعون إلى هيئة الأمم المتحدة وهي في أضعف حالاتها، وهم أنفسهم الذين تعاملوا قبل ذلك مع منظمّات إقليمية، عربية وأفريقية، هم أعضاء فيها، بسفهٍ وباستخفاف.

4

جنرالات السودان الذين يحاربون أنفسهم، سواء جاؤوا من كلّياتٍ عسكريةٍ أو من منازلهم وبواديهم، هُم أكثر عجزاً من أن يُحسنوا مخاطبة المجتمع الدولي. لكأنهم لم يدركوا أنّ السودان الذي أكمل ما يقارب 70 عاماً منذ نيله الاستقلال، يملك جهاز دبلوماسية راسخ الأداء عركته التجارب والخبرات، وفيه من البذل والمجاهدة والمساهمة في بناء الدبلوماسية العربية والأفريقية ما شهد به الكبار في جامعة الدول العربية، وفي منظمّة الوحدة الأفريقية التي صار اسمها الآن الاتحاد الأفريقي.

تُرى، هل أدرك جنرالات الخرطوم أو شهدوا أو سمعوا بلاءات ثلاث أجيزت في الخرطوم عقب الهزيمة العربية عام 1967، لتعيد إلى أمّة العرب بعض كبرياء أضاعته دولة الكيان الصهيوني؟ وهل فيهم من سمع عن مشاركة جيش السودان ضمن قوات في أول مهمّة عسكرية للأمم المتحدة في أزمة الكونغو عام 1960؟ ثمّ هل فيهم من سمع عن قوات سودانيّة ضمن قوات عربيّة وقفت بين العراق والكويت في أوائل الستينيات أو عن الكتيبة السودانية ضمن القوات العربيّة، بين بيروت الشرقية والغربية، في سبعينيات القرن الماضي في لبنان؟ تُرى هل أدرك جنرالات الخرطوم حقائق ذلك التاريخ، قبل أن يجأروا بالشكوى للأمم المتحدة من بعض دولٍ برزت للوجود بعد استقلال السودان بسنواتٍ طويلةٍ، فإذا هُم يُقزّمون قامة بلدٍ اسمه السودان، كان هو الأكبر قيمةً ومهابةً؟ هل يدرك جنرالات السّودان، الذين يحكمونه قسراً، أنّ دبلوماسية السودان التي أضاعوا بوصلتها هي التي شاركت بأقلام دبلوماسييها في صياغة ميثاق منظمّة الوحدة الأفريقية عام 1963، في حين يكاد الاتحاد الأفريقي، الذي جاء من ضلع منظمّة الوحدة الأفريقية السابقة، أن يُقصي السّودان من عضويته كما يُقصَى العنزُ الأجرب مِنْ قطيعه؟

5

حين اجتمع الوسطاء في جدّة، كان من المثير للعجب والدهشة أن يطالب ممثلو طرفٍ من الطرفين السودانيين المتحاربين بأن لا يشارك أيّ دبلوماسيٍ من السودان في الحوار بين المتصارعين، وذلك ما يعزّز النية المبيتة لتغييب أيّ دور أو ذكر للدبلوماسية السودانية، والحوار لوقف الحرب في الأصل عمل دبلوماسيّ بامتياز. لكَ أن تتصوّر أن من جاؤوا يجلسون للحوار والمسدّسات تتدلى على خصورهم، هم من قدّموا لإيقاف تلك الحرب.

للسودان الذي يحكمه جنرالات يقاتلون أنفسهم بأنفسهم سفاراتٌ في الخارج عاجزة ليسَ إلّا، لأنها مُغيّبة بإرادة فاعل. هي دبلوماسية جالسة في مقاعد المتفرّجين خارج البلاد، فيما الصراع مُحتدم بين متصارعين لا يدركون أيّ بلدٍ أضاعوا. شكوى تُرفع عبر أوراق رسميّة باسم السّودان إلى مجلس الأمن، تثير السخرية في تجاوزها التقاليد والأعراف والأساليب الدبلوماسيّة المرعيّة، فالدول التي شكاها الجنرالات، ولا نقول الدبلوماسية السودانية، هي دولٌ ما زال للسودان سفراء ودبلوماسيون معتمدون فيها، وكانت من أولى مهامّهم إدارة قنوات التواصل والتفاهم بين بلادهم وتلكم البلدان القريبة والجارة.

لنا أن نتصوّر خاتمة درامية لتلك المهزلة في ما لو بلغتْ أوراق الجنرالات ومذكّراتهم تلك بالفعل إلى الأمين العام للأمم المتحدة أنطونيو غوتيريس، ولنا أن نتصوّره يطلب من دبلوماسيي السودان العاملين في الأمم المتحدة أن خذّوا أوراقكم هذه إلى جيرانكم، لتنظروا أياً منهم تصالحون أو يصالحونكم، فأنتم والله من أهل كهف الدبلوماسية، يا رعاكم الله.

(سفير سوداني سابق)

عن خفوت الحراك المصري ضد الحرب على غزة

عصام شعبان

يشهد الأردن حراكاً تضامنياً مع الشعب الفلسطيني، يتّصف بالاستمرارية، وتوسّع رقعة التظاهرات، وتزايد عدد المشاركين فيها، وتَحوّلَ الاحتجاج ضد العدوان، في الأسبوع الأخير من الشهر الماضي (مارس/ آذار)، إلى نشاط يومي، خصوصاً في عمّان التي أعادت تظاهراتها طرح مطالبَ شملت إنهاء كل أشكال التطبيع، بما في ذلك التمثيل الدبلوماسي، ويحاصر المتظاهرون محيط مقرّ سفارة الاحتلال، ووجّه بعضهم نداءً إلى الشعب المصري كي يهبّ لنصرة غزّة، ما يشكّل جبهة إسناد عربية تتكامل مع حركة تضامن عالمي يشارك فيها ملايين الرافضين للحرب، مطالبين حكوماتهم باتّخاذ مواقفَ تساهم في وقف التوحّش الإسرائيلي، بعد أن عرّت الحرب الاحتلال، وهزمته أمام الرأي العام. يُغالط رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو فيقول إنه يواجه مليار مسلم، إلا أن التضامن أوسع وأعم من الانتماء لدين، أو كما تقول دراسة لجيش الاحتلال، إن حركة حماس عمّمت سرديتها.

خلال التظاهرات، ينادي الأردنيون إخوانهم المصريين ليظهروا صوتاً مسموعاً ضد الحرب. النداء مُحمّلٌ بالعشم كما منطوق شعارهم، ومدفوعٌ بقناعاتٍ عن ارتباط المصريين بالقضية الفلسطينية، وموقفهم المعادي للاحتلال الذي يشنّ عدواناً هو الأطول والأكثر وحشية في تاريخ حروبه، مخلّفاً مأساة إنسانية تتكرّر مشاهدها بمجاز تستكمل حصاراً بالتجويع والقتل، وإشاعة الرعب، كما في حصار مستشفى الشفاء وتدميره أخيراً، وقتل مرضى، وغيرها من وقائع مشابهة تستدعي غضباً ليس ضمن حساباته أن تكون عربياً أو مسلماً. مع توافر العوامل الخارجية، والموضوعية في الوقت ذاته، الدافعة للاحتجاج، ومع تكرار نداءات لمصر، سواء في الأردن، أو في غيرها من دول عربية، ما زال الحراك المصري خافتاً، ولا يتناسب في طبيعته وعدد المشاركين فيه مع ما كان متوقّعاً أن يكون ردَّ فعلٍ محتملٍ على تبعات الحربً

> ما زال الحراك المصري خافتاً ولا يتناسب في طبيعته وعدد المشاركين فيه مع ما كان متوقّعاً أن يكون ردَّ فعل محتمل على تبعاتً الحربً

> ليس صحيحاً أنّ السلطوية هي الوجه الوحيد في تفسير خفوت الحراك، وقد يكون في هذا تبرير وتغطية على أسباب أخرى ليس لدى بعضهم الشجاعة لخوض نقاش فيها

العام، وليس مجرّد ردّة فعل على أحداث جارية وكوارث تستدعي الاحتجاج أو التضامن. وإذ أردنا المقارنة عربياً، يبدو الحراك المصري ضعيفاً قياساً بدول بينها المغرب والعراق، وحتى تونس، والتي تعرّضت فيها الثورة للإخفاق. لذا، ليس مقنعاً بطبيعة الحال الارتكان إلى هزيمة الثورة أو ممارسات النظام السلطوي الذي لا يتسامح مع وجود حراك مستقل، تبريراً لمحدودية الحراك.

وهنا من الضروري النظر إلى الظروف الذاتية بما فيها رغبة الفاعلين في المجال العام، وقدرتهم على تنظيم أنفسهم، وبناء عمل جبهوي يفي بمتطلّبات الحراك، وأنّ تكون المؤسّسات قادرة على التنسيق فيما بينها، ووضع الخطط، وتكوين النواة الأساسية (نخبوية بطبيعة الحال) الداعية إلى حراكٍ مخطّط يمتلك خطاباً محلّ اتفاق على حدود دنيا، ويمكن الاستبصار بخبراتٍ وتجارب سابقة بشأن الحركات الاجتماعية، وبناء التحالفات التي شهدتها مصر سابقاً، فليس صحيحاً أنّ السلطوية هي الوجه الوحيد في تفسير خفوت الحراك، وقد يكون في هذا تبرير وتغطية على أسباب أخرى ليس لدى بعضهم الشجاعة لخوض نقاش فيها.

وبالعودة إلى المقارنة لإيضاح دور الجبهات والأطر التنظيمية بوصفها أحد منطلقات الحراك، فحتى في ظلّ نُظم تتفاوت فيها درجة السلطوية وأشكالها، وأيضاً مواقفها من خيار المقاومة، نجد أن مجمل الحراك العربي يتأسّس أولاً على جبهات تتكوّن من مؤسّسات سياسية ونقابية وفاعلين في المجتمع المدني. ثانياً، يتوفّر لها حدّ أدنى من التنظيم، وتعتمد على العمل الجماعي. ثالثاً، تطلق هذه التحالفات فعالياتها (سواء الاحتجاجية كما التظاهر أو غيرها من فعاليات تضامن) عبر الأطر الجبهوية، وتعمم دعوتها بين صفوفها، وليس عيباً في هذه الحالة، أن تكون بداية التحركات نخبوية ورمزية الطابع تتطوّر لاحقاً.

الحراك الأردني كمثال (مع الأخذ في الاعتبار اتصال لم ينته مع فك الارتباط بين الضفّتين) يعتمد على تحالفات مكوّنة من هياكل سياسية ونقابية، تتفق على حد أدنى يمثّل القواسم المشتركة، وقبل «7 أكتوبر»، لعب تراكم النشاط ضد التطبيع دوراً مهماً، خاصة في ثلاث سنوات مضت، وساهم في وضع أساس قوي للحراك الجاري، وتلعب هيئتان دوراً سياسياً وتنظيمياً، فهناك الملتقى الوطني لدعم المقاومة الذي تأسس بشكل منهجي، واضعاً وثيقة سياسية في مارس/ آذار 2022، بالإضافة لإطار تنسيقي أقدم، تأسس منذ 2012، وهو ائتلاف الأحزاب القومية واليسارية، ولعب الائتلاف دوراً في الدعوة والتنظيم، غير أن وثيقة تأسيسه تضمّنت موقفاً واضحاً من التطبيع والصهيونية، ولا تمتلك مصر اليوم، إطاراً جبهوياً مشابهاً حتى مع وجود الحركة المدنية، إطاراً جبهوياً حزبياً، لكن الفارق في التوجهات والفاعلية كبير.

أيضاً، لم يقتصر الحراك الأردني على التظاهر، فهناك مؤتمرات تعمم فيها مطالب وخطابات سياسية لها أهميتها إذ اقترنت بالعمل، لأن الخطاب والوثائق يؤسسان لوعي ومسار حركة تجتمع عليها أطراف التحالفات من أحزاب وقوى وشخصياتٍ عامة، وهذه التحالفات تمثّل نواة الحراك الذي أصبح بفعل التراكم والفاعلية جاذباً للشارع وممتداً ومتواصلاً وقوياً، وهو ما دفع قوى الثورة المضادة عربياً إلى أن تهاجمه وتحذّر منه بالاتهامات والعبارات المعروفة نفسها حول المؤامرات الخارجية، والأخطار المحتملة على الاستقرار، رغم أنّ الحراك واضح في توجّهاته وأهدافه في دعم صمود الشعب الفلسطيني، ومجمل مطالبه للنظام ترتبط بوقف التطبيع.

في المغرب، هناك ثلاثة تحالفات، الهيئة المغربية لنصرة قضايا الأمة، ومجموعة العمل الوطنية من أجل فلسطين، والجبهة المغربية لمناهضة التطبيع، واستطاعت الهيئات الثلاثة، أن تنظّم أزيد من 1500 مظاهرة، وتُحافظ على تواترها أسبوعياً في عشرات المدن، خصوصاً يوم الجمعة. وفي تونس أيضاً، وإن بدا الحراك أقل حجماً وعدداً، إلا أن وجود تحالفات سياسية نشطة يظلّ مهماً في تنسيق العمل والدعوة إلى فعاليات. لا تعني مقومات توفّر مؤسسات تدعو إلى فعاليات وتنتج أفكاراً ومواقف التغافل عن تأثيرات السلطوية محدداً يعوق الحراك، من خلال عاملين.

الأول درجة التسامح مع حرية التعبير. والثاني، موقف النظم من القضية الفلسطينية وخيار المقاومة، لكنّ التسليم بعدم القدرة على تجاوز بعض التحدّيات التي تفرضها السلطوية، سيعني الاستسلام للوضع القائم، وأن يظلّ الحراك خافتاً، وستنتظر القوى السياسية فرصة أن يوظّف الحراك لمصلحة السلطة حين تشاء، ضمن حدود مقبولة، وعبر شخوصها بشكل أساسي، وحينها تصبح شخوص من الفاعلين في المجال العام ضيوفاً متلقين للدعوة، وهو ما جرى عملياً في مظاهرات «20 أكتوبر» التي دعا إليها النظام، ورغم ذلك، قبض على عشرات الشباب الذين دفعوا تكلفة كبيرة، هي بقاؤهم سجناء لوقت لا يعرف تقديراً قانونياً محدداً، ويضيف هؤلاء تصنيفاً جديداً: «سجناء التضامن مع غزة».

ورغم معوقات وجود حراك مصري، وآثار السلطوية ودورها، لا يمكن التسليم بأن سبب مشهد الخفوت طبيعة النظام، وعدم تسامحه مع التظاهرات، وحصار الميادين أمنياً وحسب، لأنه وباستثناء التظاهر كأداة، هناك محدودية في استخدام أدوات أخرى، نحو المؤتمرات والندوات والفعاليات الثقافية التي يمكن أن تكون ساحة للتضامن، وخلال ستة أشهر من الحرب كان استخدام هذه الأدوات محدوداً، إضافة إلى قلة عدد المشاركين فيها. لذلك، يتصدّر التضامن الرمزي ذو الطابع الفردي عبر ساحات التواصل الاجتماعي المشهد، بجانب حملات المقاطعة المنتشرة بشكل كبير، وأيضاً حملات جمع التبرّعات (ربما الأكبر عربياً)، لكنّ السلطة اتبعت طرقاً لاختراقها وتوظيفها سياسياً ونزع طابعها الشعبي، ضمن عمليات تأميم المجال العام، مستخدمة على سبيل المثال لا الحصر، التحالف الوطني للمنظمات الأهلية.

ويبقى مستقبل الحراك التضامني مع فلسطين، مشروطاً بعدد من العوامل، أهمها حالة الفاعلين في المجال العام، ومدى امتلاكهم مؤسسات وأشخاص وقدرات في بناء التحالفات، وقدرة على تكوين النواة الأساسية للحراك الذي يمكن له أن يجذب آخرين، عبر خطاب واع ومناسب قادر على الدعوة والحشد، وصياغة رؤية ومسار للحراك، بما في ذلك تكتيك مناسب يقوم على الاتفاق على حدّ أدنى من المفاهيم، واستثمار الإمكانيات المتاحة، وتوسيعها أيضاً، عبر خطاب يربط بين الوضع في غزّة ومصالح مصر دولة جوار تتأثّر بتداعيات الحرب في صُعد عدّة، ويُخصم بقاء صوت القوى الشعبية فيها خافتاً من رصيدها وصورتها أيضاً.

(كاتب مصري)

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

رئيس التحرير معن البياري ■ مدير التحرير ارنست خوري ■ المدير الفني إميل منعم ■ السياسة جمانة فرحات ■ الاقتصاد مصطفى عبد السلام ■ الثقافة نجوان درويش ■ منوعات ليال حداد ■ المجتمع يوسف حاج علي ■ الرياضة نبيل التليلي ■ تحقيقات محمد عزام ■ مراسلون نزار قنديل

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، لندن
Ealing Cross, Second floor, 85 Uxbridge Road, London, W5 5TH
Tel: 00442045801000
■ مكتب الدوحة
الدوحة ـ برج الفردان ـ لوسيل ـ الطابق الـ 20 ـ
هاتف: 0097440190600

■ مكتب بيروت
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads